رواية

البئر

خوان كارلوس أونيتي

ترجمة : علي إبراهيم أشقر

Telegram:@mbooks90

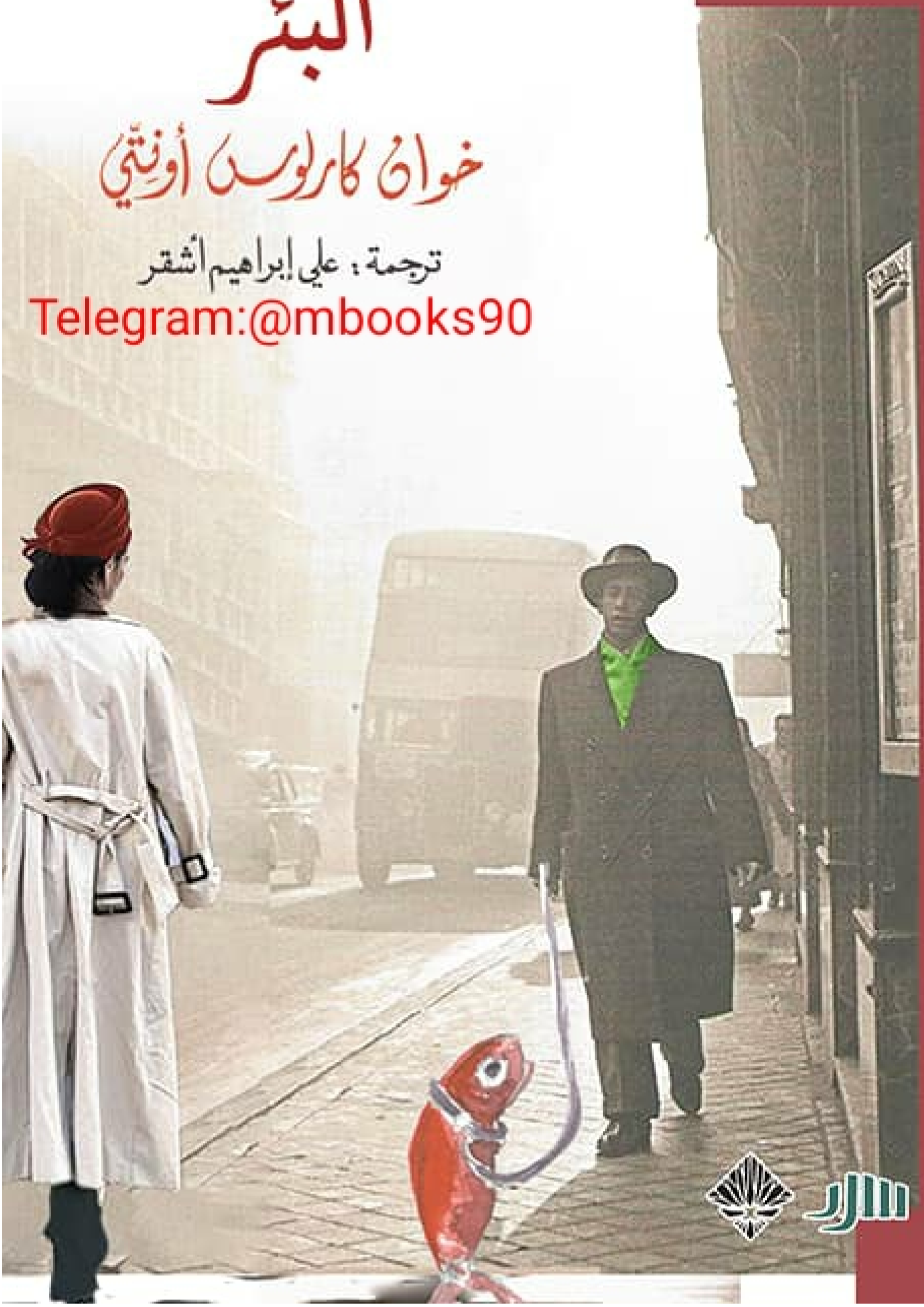

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

This work has been published within the framework of the IDA Translation Support Program.

Ministry
of Education
and Culture
URUGUAY

National Directorate
of Culture

Uruguay XXI
INVESTMENT, EXPORT AND COUNTRY
BRAND PROMOTION AGENCY

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منذ هنيهة وأنا أذهب وأجيء في الغرفة، فخطر لي فجأةً أنّي أراها أوّل مرة. فيها سريران سفريّان، وكراسيّ مخلّعة القوائم ومن غير مقعد، وصُحف حرقتها الشمس ومضى عليها أشهر مسمّرةً في النافذة بدلاً من الزجاج.

كنت أتمشّى ونصف جسمي عارٍ، ضجِراً من الاضطجاع منذ منتصف النهار، نافخاً من الحرارة اللعينة التي تلتصق بالسقف، وتنسكب في الحجرة الآن، وفي أوقات المساء دائماً. أسير ويداي خلفي وأنا أسمع وقْع النعل على البلاط، وأشمّ رائحة كلّ إبطٍ من إبطيّ بالتناوب، وأحرّك رأسي من هذا الجانب إلى الجانب الآخر مستنشقاً الهواء، وهذا ما جعلني أضخّم تكشيرةً من الاشمئزاز على وجهي، وهذا ما كنت أحسّ به. فيما لحيتي غير الحليقة تحتكّ بمنكبي.

وأتذكّر، قبل أن أثير ذكرى أيّ شيء آخر، شيئاً بسيطاً، هو أن عاهرة كانت تُريني منكبها الأيسر المحمرّ وجلده يوشك أن يتشقّق، قائلة: «اعلمْ أنّهم أولاد كلبة. يأتيني عشرون واحداً منهم في اليوم، ولا أحد منهم حليق الذقن!».

كانت امرأة فتاة وأصابعها طويلة الأنامل، تقول قولها من غير سخط ومن غير أن ترفع صوتها، وبالنبرة الغنِجة ذاتها التي تحيّي بها حينما تفتح الباب. وأنا لا أستطيع تذكّر وجهها، ولا أرى غير منكبها الذي أثارته اللحى التي تحتكّ بهذا المنكب دائماً وليس بالمنكب الأيمن، وقد احمرّت البشرة بينما تشير إليه اليد ذات الأصابع الناعمة.

بعد ذلك، أخذتُ أنظر من النافذة شارد الذهن، ساعياً لاكتشاف كيف هو وجه العاهرة. فبدا لي أن ناس الفناء أكثر إثارةً للاشمئزاز من أيّ وقت مضى. وهم كالعادة دائماً، المرأة السمينة التي تغسل في حوض صغير وهي تدمدم على الحياة وعلى صاحب المخزن، بينما الرجل يشرب «المثة» مطأطئاً ومنديلٌ أبيض وأصفر معلّق إزاء صدره. أمّا الصبيّ فكان يحبو ويداه وخطمه ملوّثة بالطين. لم يكن عليه سوى قميص مشمور الكمّين. وبالنظر إلى مؤخّرته جعلني أفكّر: أنّى لناس -كلّهم تقريباً- أن يكونوا قادرين على أن يشعروا بالحنان على هذا؟

تابعت سيري بخطا قصيرة لكي يطرق النعل الأرض مرّاتٍ كثيرة في كلّ شوط. وكان عليّ أن أتذكّر حينئذٍ أنّي غداً سوف أتمّ أربعين عاماً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وربَما ما كنت أستطيع أن أتصوَر الأربعين على هذا الشكل: وحيداً وسط القذارة محتبساً في الحجرة. لكنَ هذا الأمر لم يجعلني كئيباً. بل كنت أحسَ بالفضول نحو الحياة فقط، وبقليل من الإعجاب، بقدرتها على إثارة الاضطراب دائماً. حتى لم يكن لديَ تبغ.

لا تبغ لديَ، لا تبغ لديَ. وما أكتبه هو مذكَراتي. إذ يجب على المرء أن يكتب قصَة حياته حينما يبلغ الأربعين، لا سيما إذا حدثت له أمور هامَة. ولا أدري أين قرأت هذا.

ووجدت قلم رصاص وكومةً من الإعلانات تحت سرير لاثَرو. وأنا الآن قليل الاهتمام بكلَ شيء: بالقذارة والحرارة وتعساء الفناء. ومن المحقَق أنَي لا أعرف أن أكتب. بيدَ أنَي أكتب عن نفسي ذاتها.

وشعوري الآن بالحرارة أقلَ، ويمكن أن يبترد الليل. أمَا الصعوبة فهي أنَ تجد نقطة انطلاق. وأنا عازم على ألَا أكتب فيها شيئاً عن الطفولة، وكطفلٍ كنت مغفَلاً. ولا أتذكَر من أعوامي بعد ذلك إلَا ما كان منها في القرية أو في زمن الجامعة. وقد أستطيع الحديث عن غريغوري الروسي الذي وُجد ميتاً في الجدول؛ وعن ماريَا ريتا، والصيف في كولونيا. وهناك آلاف من الأمور يمكن أن تملأ كتباً.

كففتُ عن الكتابة لكي أشعل الضوء وأرطَب عينيَ اللتين كانتا تلتهبان. قد يكون ذلك عائداً إلى الحرارة. لكنَي أريد الآن شيئاً مختلفاً، شيئاً خيراً من قصَ الأمور التي حدثت لي. وقد يسرَني أن أكتب قصَة روحٍ ما، أكتبها وحدها فقط، من غير الأحداث التي لا بدَ لها من أن تختلط بها، شئت ذلك أم أبيت. أو الأحلام. بدءاً من كابوسٍ ما، هو أبعدُ ما يُمكن لي أن أتذكَره، حتى المغامرات في كوخ جذوع الشجر. لمَا كنت في القرية كنت أحلم ليالَيَ كثيرة بحصانٍ أبيض يقفز فوق السرير. وكان يُقال لي إنَ الذنب يقع على عاتق خوسِه بدرو، لأنَه كان يجعلني أضحك قبل النوم وهو ينفخ على المصباح الكهربائيَ ليطفئه.

والطريف أنه كان يثير فيَ الضجرَ إن قال أحدُ ما عنَي إنَي «حالم». وهذا مُحال. فقد عشت مثل أيَ شخص آخر وأكثر. وإذا كنت أريد اليوم الحديث عن الأحلام، فليس ذلك أنَي لا أملك شيئاً آخر لأقضه. وإنَما هذا ما أرغب فيه ببساطة. وإذ اخترتُ حلم كوخ الجذوع، فليس ذلك لأنَي أملك سبباً خاصَاً. إذ إنَ هناك مغامراتٍ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخرى أكمل وأهمّ وأحسن تنظيماً. لكنّي أظلّ في الكوخ لأنّه يُرغمني على أن أقصّ مقدّمة، أقصّ شيئاً ما حدث في عالم الوقائع الواقعية منذ أربعين عاماً. وقد يكون الأخذ بقصّ «حدثٍ» ما وحلمٍ مشروعاً لشيءٍ ما أيضاً. وبذلك نكون جميعاً مسرورين.

ذلك أمرٌ حدث في 31 كانون الأوّل لمّا كنت أقيم في كابورّو. ولست أدري ما إنْ كنت في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمري، وقد يكون من السهل التحديد لو فكّرت قليلاً، لكنّ الأمر لا يستحقّ العناء. أمّا عمر آنا ماريّا فإنّي أعلمه من غير لجلجة: هو ثمانية عشر عاماً. ثمانية عشر عاماً، لأنّها تُوفّيت بعد أشهر من ذلك، وكانت ما تزال في ذلك العمر حينما فتحت باب الكوخ ليلاً، وهرعت من غير إثارة ضوضاء لتضطجع على سرير أوراق الشجر.

كان ذلك في نهاية العام. وفي البيت الكثير من الناس. وإنّي أتذكّر الشمبانيا التي دشّن بها أبي بزّة جديدة. وكنت أحزن أو أغضب، ولا أدري السبب، كلّما عُقِدَت اجتماعات أو أُثيرت ضجّة. أمّا الفتيان فقد نزلوا بعد الغداء إلى الحديقة (ويسرّني أنْ كتبت نزلوا وليس نزلنا)، إذْ لم يكن لي حينئذٍ علاقة بأحد.

كانت ليلة حارّة من غير قمر، وذات سماء سوداء ملأى بالنجوم. لكنها ليست كحرارة هذه الليلة في الغرفة، وإنّما هي حرارة كانت تتحرّك بين الأشجار وتمرّ قرب المرء كأنّها نَفَس شخص آخر يحدّثنا أو في سبيله ليحدّثنا.

كنت جالساً على أكياس من الإسمنت القاسي، وحيداً وبقربي فأسٌ كبيرة ذات نِصابٍ أبيض بسبب الكلس. كنت أسمع الزعيق الذي يُثار بأبواقٍ ابتيعت لأجل هذا الغرض وجاءت مع الشمبانيا لوداع السنة. وكانت تُعزف موسيقا في البيت. ولبثت على هذا الحال مدّةً طويلة من غير أن أتحرّك إلى أن سمعت همس خطا، ورأيت الفتاة التي تسير مقبلةً في الدرب الرملي.

قد يبدو الأمر كذباً: لكنّي أتذكّر تمام الذكرى أنّي منذ اللحظة التي تبيّنت فيها أنها آنا ماريّا -من طريقة إبعادها ذراعها عن جسمها وانحناء رأسها- عرفت كلّ ما سوف يحدث هذه الليلة. كلّ ما سوف يحدث ما عدا النهاية، وإن كنت أتوقّع شيئاً بالمعنى ذاته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نهضت وأخذت أسير لأبلغها مع الخطة المعدّة إعداداً كاملاً، وأنا على علمٍ بها، كأنّ الأمر عبارة عن شيءٍ ما قد حدث لنا، وليس بالإمكان تجنّب تكراره. فتقهقرَتْ قليلاً لمّا أمسكتُ بها من ذراعها؛ لطالما شعرَتْ بالجفاء أو الخوف مني.

- أهلاً!

- أهلاً!

وشرعت أحدّثها عن أرسينيو مازحاً؛ أمّا هي فأخذت تزداد برودا، وتغُذُّ الخطا عبر الطرقات وسط الأشجار. ففيرثُ في الحال من تكتيكي، وشرعت أمدح أرسينيو بصوتٍ رزين وودّي. فساورها الشك مدّة لحظة لا أكثر. ثم أخذت تضحك عند كلّ كلمة، وتُلقي برأسها إلى الخلف. وكانت أحياناً تنسى نفسها، فتضربني أثناء السير على كتفي ضربتين أو ثلاث ضربات متتاليات. ولا أعرف بأيّ رائحة يفوح العطر الذي استعملته. ولقد قلت لها الكذبة من غير أن أنظر إليها وأنا على ثقة بأنها سوف تصدّقها. قلت لها إنّ أرسينيو هو في بُيَيت البستانيّ، وفي الغرفة المواجهة، وهو في النافذة يدخّن وحيداً. (لِمَ لمْ يوافِني أيّ حلم قطّ بفتىً يُدخّن بمفرده ليلاً في النافذة وسط الأشجار؟). فاتفقنا على الدخول من الباب الخلفي ومفاجأته. وكانت تتقدّمني وقد حنَتْ جسمها شيئاً قليلاً، لكيلا يستطيع أن يراها، مع ألف حِيطة حتّى لا نثير ضوضاء عند دوسنا أوراق الشجر. واستطعت أن أرى ذراعيها العاريتين ونقرتها. لا شكّ أن هناك وسواساً مدروساً جيّداً هدفه نقرة الفتيات، النقرات الغائرة قليلاً والطفليّة وعليها زغب ليس بالمستطاع تسريحه أبداً. لكنّي ما كنت أنظر إليها حينئذٍ بشهوة. ولقد رثيت لها وأشفقت عليها لكونها حمقاء، ولأنّها صدّقت كذبتي، ولأنّها تتقدّم على هذا الشكل المضحك محنيّة الظهر كابحةً ضحكة تملأ فمها بسبب المفاجأة التي نحضّرها لأرسينيو.

فتحتُ الباب ببطء. فأدخلتْ هي رأسها، واتّخذ جذعها للحظة شيئاً من رفق الحيوان وسذاجته. ثمّ التفتت لتسألني وهي تنظر إليّ. فانحنيت حتى كدت ألمس أذنها:

- ألم أقل لك إنه في الجهة المواجهة من الحجرة الأخرى؟

وأصبحت الآن متجهّمة ومتردّدة ويدها تستند إلى إطار الباب وكأنها تريد أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تتخذ اندفاعاً وتنطلق. ولو فعلَتْ ذلك لأحببتها طوال الحياة. لكنّها دخلت وكنت على علم أنّها ستدخل وأعلم البقيّة كلّها. وأغلقتُ الباب. وكان ضوء مصباح الشارع يتسلّل عبر النافذة ويُخرج من الظلام الطاولة المربّعة ذات المشمّع الأبيض، والبندقيّة المعلّقة على الحائط وستارة الكريتون التي تفصل بين الحجرات.

أمسكَتْ يدي ثمّ تخلّت عنها فوراً. وسارت على رؤوس أصابع قدميها حتّى الستارة وأزاحتها بضربة من يدها. وأعتقد أنّها فهمت كلّ شيء فجأة ومن غير تدرّج، وبالطريقة ذاتها التي قد كنت تصوّرتها. ودارت نصف دورة وجاءت راكضةً يائسة حتّى الباب.

كانت آنا ماريّا كبيرة الجسم طولاً وعرضاً، خصوصاً حينما تستلقي في الكوخ ويغوص سرير الورق تحت ثقل جسمها. لكنّي اعتدت ذلك الوقت أن أسبح كلّ صباح في الشاطئ. وكنت أكرهها. ومن سوء الحظّ أنني تلقّيت أوّل ضربة منها على أنفي. فقبضت عليها من عنقها وأسقطتها أرضاً. وأخذت أدوّر ساقيّ وأنا فوقها وأغطّيها حتى لم تستطع أن تتحرّك، ما عدا صدرها وثدييها الكبيرين أخذا يتحرّكان يائسين من غضب وتعب. فأمسكتُ بهما، كلٌّ منهما بيد وعصرتهما. واستطاعت أن تحرّر إحدى ذراعيها وغرزت أظفارها في وجهي. فبحثت حينئذٍ عن مداعبة هي أكثر المداعبات إذلالاً وأبغضها. فقفزَتْ قفزةً ولبثت هادئة في الحال، باكيةً وجسمها ضعيف. وخمّنت أنّها تبكي من غير أن تُبدي علامات. ولم تكن لديّ قطّ في أيّ لحظة نيّةٌ في أن أغتصبها. ولم تكن لديّ أيّ رغبة فيها. فنهضتُ وفتحت الباب وذهبت إلى الخارج؛ واستندت إلى الجدار بانتظارها. وجاءت موسيقا البيت وشرعت أرافقها مُصفّراً.

وخرجَتْ على مهل وما كانت تبكي الآن. ورأسها شامخٌ على هيئةٍ لم ألحظها من قبلُ. ومشت خطوات وهي تنظر إلى الأرض وكأنّها تبحث عن شيءٍ ما. وبعد ذلك جاءت حتّى كادت تحتكّ بي. وأخذت تحزك عينيها من فوقُ إلى تحتُ، وملأت وجهي بالنظرات بدءاً من جبيني حتّى فمي. انتظرت الضربة، أو الشتيمة أو أيّ شيء كان، وأنا مستند إلى الجدار ويداي في جيبيّ. وما كنت أصفّر، لكنّي أتابع الموسيقا ذهنياً. وصارت أكثر قرباً منّي وبصقت عليّ. ونظرت إليّ مرّةً أخرى وانطلقت راكضة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لبثت ساكناً. وأخذ اللعاب يجري مُبترداً على الأنف والوجنة، ثمّ تشعّب ساقطاً على الشفتين والفم. فسرتُ حتى باب الحديد الكبير وخرجت إلى الطريق العامّ. سرتُ ساعاتٍ حتى الفجر لمّا أخذت السماء تنجلي. أصبح وجهي حينئذٍ جافّاً.

في عالم الوقائع الواقعية أو الحقيقيّة، لم أرَ آنا ماريَا مرّةً أخرى حتّى ستة أشهر لاحقة. كانت تتمدّد على ظهرها وعيناها مطبقتان. ساكنة. وثمّة ضوء يجعل الخُطا تتذبذب، وبالجهد يحرّك ظلّ أنفها. لكنّي لست بحاجة الآن إلى أن أنصب لها فخاخاً خُمقاً. بل هي جاءتني ليلاً من غير أن أدعوها، ومن غير أن أعرف من أين جاءت. فيما الثلج يسقط في الخارج، والعاصفة تجري صاخبة بين الأشجار. فتحتُ باب الكوخ. ودخلت مسرعة، واستلقت عاريةً فوق خيش سرير أوراق النباتات.

لكنّ المغامرة تستحقّ على الأقل الاهتمام ذاته الذي كان لنهاية ذلك العام. لها مقدّمةٌ دائماً، تكاد لا تكون هي المقدّمة ذاتها أبداً. في آلاسكا قرب غابة الصنوبر حيث أعمل؛ أو في كلونديك في مخيّم للذهب؛ أو في سويسرا على ارتفاع آلاف الأمتار في «شاليه» اختبأتُ فيه لكي أستطيع أن أتمّ عملي الثمين بهدوء. (ذلك في مكان شبيه بالمكان الذي كان فيه إيفان بونين المسكين لمّا أُعلن في نهاية أحد الأعوام عن منحه جائزة نوبل). لكنه على كلّ حال مكانٌ فيه ثلج. هناك تنبيه آخر: لا أدري ما إن كانت كلمتا كوخ وخُصّ مترادفتين، وليس لديّ معجم ولا يوجد من أسأله على شكل خاصّ. وإذ أريد أن أتحاشى أسلوباً مُفقراً، فسوف أستعمل الكلمتين بالتناوب.

تلك الليلة كنت في آلاسكا حتى الساعة العاشرة في حانة «النفل المزدوج». ولقد قضينا الليلة نلعب الورق وندخّن ونشرب. كنّا نحن الأربعة دائماً: رايت صاحب الحانة، والشريف مالي، وريموند الأحمر اللامبالي دائماً، ويدخّن في غليون طويل. ونضحك من حيل مالي القادر على إخراج بوكر بأربع أوراق آس، في وجه "فول هاوس" للآس(1). لكنّنا ما كنّا نغضب قطّ، إذ نلعب على قطع نقدية، ولا نسعى إلّا إلى قضاء ليلة وديّة معاً، وفي العاشرة بالضبط أنهض وأدفع ثمن ما استهلكت، وأشرع في لبس ثيابي. وكان لا بدّ لي من أن أرتدي السترة الجلديّة من جديد، والقبّعة المقلّمة والقفّازين، وآخذ المسدّس وأتناول آخر جرعة لأحمي نفسي من البرد في الخارج، وأحييهم وأعود إلى البيت بالزحافة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يهاجمني في بعض الأحيان لصوص، أو أكتشفهم عند منشر الخشب. لكنَ هذه الرحلة ليس لها أهمية عموماً، حتى وصلت إلى إلغائها؛ محافظاً بالجهد تقريباً على فترة قصيرة أرفع فيها وجهي نحو السماء وفمي مضغوط وعيناي شبه مغمضتين وأنا أفكّر في أنَ عاصفة ثلجيّة قد تفاجئني عمّا قريب جدّاً في الطريق. عشر سنوات في آلاسكا أعطتني الحقَ بألّا أخطئ. أتابع سيري وأحثّ الكلاب.

ثمَ أصل إلى الكوخ، وأغلق الباب -من غير أن أقفله بالمزلاج-، وأجلس القرفصاء إزاء المدفأة لكي أشعلها. وأفعل ذلك سريعاً. ففي مغامرة العشرة آلاف رأس من الماشية، علّمني أحد الهنود طريقةً لأشعل النار بها سريعاً ولو كنت في الهواء الطلق. وأنظر إلى حركة النار، وأقرّب صدري ويديّ وأذنيّ من الحرارة. وأظلّ للحظة ساكناً، أكاد أكون منوّماً، من غير أن أرى، بينما النار تتموّج أمام عيني وتصعد وتختفي، ثمَ تشبّ مرّةً أخرى راقصةً مضيئة وجهي المنحني، وتضفي عليه بضوئها الأحمر شكلاً ما حتى أستطيع أن أشعر بشكل وجنتي وجبهتي وأنفي بوضوح كبير وكأنّني أتراءى في مرآة، لكن، بشكل أعمق كثيراً.

حينئذٍ فُتح الباب، وسُحقت النار كشجرة صغيرة، متقهقرةً خائفةً من الريح التي ملأت الكوخ. ودخلت آنا ماريا مسرعة. ولقد عرفت أنّها هي من غير أن ألتفت، وأنّها عارية. ولمّا أغلق الباب مرّة أخرى، من دون جلبة، كانت آنا ماريا قد استلقت على سرير الورق منتظرة.

فسرتُ ببطء حتّى السرير، بالحذر ذاته الذي أقترب به لأنظر إلى عصافير الغابة حينما تستحمّ في النهر. وأنظرُ من فوق من غير حركات ومن غير كلام، إلى خدّيها اللذين أخذا يمتلئان دماً، وإلى آلاف القُطيرات التي تلمع على جسمها وتتحرّك مع حركة ألسنة اللهب؛ وإلى ثدييها اللذين يبدو أنّهما يتأرجحان كضوء شمعة يتذبذب بتأثير خُطا صامتة. ولوجه الفتاة حينئذٍ نظرةٌ مفتوحة صريحة، وتبتسم لي مفرجةً بصعوبة عن شفتيها.

ولا نتكلّم بتاتاً. وأجلس ببطء على حرف السرير من غير أن أكفّ عن النظر إليها. بل إنّي أمعن النظر في المثلّث الأسود حيث ما تزال العاصفة تتلألأ. حينئذٍ بالضبط تكون بداية المغامرة. هذي هي مغامرة كوخ الجذوع.

وأنظر إلى بطن آنا ماريا المدوّر تقريباً. ويأخذ قلبي بالقفز مجنوناً، فأعضّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على قصبة الغليون بكلّ ما أوتيت من قوّة، لأنّ فخذيها الثخينتين أخذتا ترتجفان بعذوبة وترتعدان كأنّهما ذراعا ماء تلامسهما الريح، ثمّ أخذتا تتباعدان بشكلٍ حلو تقريباً. ولربّما تتقهقر العاصفة في الخارج وهي تدور بين الأشجار البهيّة. وأنا أحسّ بحرارة المدفأة في ظهري بينما أمعن النظر في الشقّ الذي يفصل ما بين الفخذين متعرّجاً، ثمّ يأخذ بالاتّساع كفتحة باب ستدفعها ريح الغابة ذات ليلة من ليالي الربيع. وأعتقد أحياناً أنّي أرى، وأنا ساكنٌ دائماً بلا حراك، شقّ الجنس الصغير والبسمة الضعيفة الغامضة. لكنّ النار ترقص وتحرّك الظلال مُخادعة. أمّا هي فما تزال يداها تحت رأسها، ووجهها متجهّم يتحرّك باهتزاز الساقين الكسول فقط.

نزلت لآكل. إنهما المظهران ذاتهما دائماً: حرارة في الشوارع المغطّاة بالرايات، وزيادة قليلة من الملح في الطعام. واستطعت أن أحصل من لورِنْثو على علبة تبغ. وبحسب مذياع المطعم: عبأت إيطاليا نصف مليون رجل باتّجاه الحدود مع يوغوسلافيا. ويبدو أنّ حرباً ستنشب. وإنّي أتذكر الآن حديثاً وجود لاثرو، ويبدو لي غريباً أنّه لم يعد حتّى الآن، وقد يكون محبوساً بسبب السُكْر، أو أنّ آلةً ما قد قطعت رأسه في المعمل؛ ومن الممكن أيضاً أن يكون قد حضر اجتماعاً من الاجتماعات المشهورة للخليّة. هو رجل مسكين!

وأعيد قراءة ما كتبت للتوّ من غير أن أعيره اهتماماً كبيراً، لأنّي أخشى أن أمزّقه كلّه. منذ ساعات وأنا أكتب. وأنا مسرور لأنّي لا أتعب ولا أضجر، ولا أدري ما إن يكن لهذا أهمية. ولا يهمّني أيضاً.

هناك انتهت مغامرة كوخ الجذوع. أعني أنّها هي هذا ولا شيء آخر غير هذا. أمّا ما أشعر به حينما أنظر إلى المرأة العارية في السرير، فلا يمكن قوله، ولا أستطيع، ولا أعرف الكلمات. وهذا الذي أشعر به هو المغامرة الحقيقية. ويبدو حينئذٍ حماقةً أن نقُصّ ما له أهميّة أدنى. لكنّ هناك جمالاً، وأنا على يقين من ذلك، لدى فتاة تعود عاريةً على غير توقّع ذات ليلة عاصفة لكي تأوي إلى كوخ حطب قد بناه أحدُ ما بنفسه، بعد سنين كثيرة، في آخر العالم تقريباً.

تحدّثت مرتين فقط عن مغامراتي إلى أحدٍ ما. ورحت أقصّ ذلك ببساطة وسذاجة، يملؤني الحماس وكأنّني طفلٌ يقصّ حلماً فريداً. وملأتني نتيجة النجويين كلتيهما بالاشمئزاز. فلا وجود لأحد روحه نقيّة، ولا يمكن التعرّي أمام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحد من غير خجل.

وإذ كُتب الآن ذلك كلّه هنا، فقد يستطيع كثير من الأشخاص أن يقرؤوا كما يشاؤون، مغامرة كوخ الجذوع.

كوردِس أوّلاً، ثمّ تلك المرأة من «الإنترناثيونال». بالطبع، لا أستطيع أن أحقد عليهما، وإن كانت هناك إهانة في الأمر، فقد كانت جدّ ضئيلة ونُسيت بسرعة كبيرة، لأنها من دون أهميّة. ولجأت من غير أن أطرح الأمر على نفسي إلى الطبقتين الوحيدتين من الناس، اللتين يمكن لهما أن تفهماني. كوردِس شاعر، والمرأة إستير عاهرة. ومع ذلك...

هناك شيئان أريد أن أوضّحهما مرّةً واحدة وإلى الأبد. وهذا ضروري لسوء الحظّ. لئن تكن مغامرة كوخ الجذوع إيروسية، وربّما مفرطة في إيروسيّتها، فإنّها واحدة من ألف مغامرة ولا شيء آخر. ولا ظلّ لامرأة في المغامرات الأخريات، لا في «عودة نابوليون» ولا في «خليج آزاك»، ولا في «ليلة المطرقة»، ولا في «أعمال جون مورهاوس». ونستطيع أن نملأ كتاباً بالعناوين. ولا يمكنني القول أيضاً إنّي أفضّل واحدةً منها. فلْتأتِ التي تشاء منهنّ من غير عنف، مولودةً من جديد في كل زيارة. ثمّ إنّ حياتي لا تقتصر على هذا الأمر، ولا على أن أقضي يومي وأنا أتخيّل أموراً. أنا أحيا. وقد عدت البارحة ذاتها مع هانكا إلى مقصورات «فورت ماكالّه». وأتذكّر أنّي شعرت بحزن مضحك لافتقاري إلى «الروح الشعبية»، ولانعدام قدرتي على التمتّع بأساطير الإعلانات، وأعلم أنّ فيها شكلاً من الفرح، أعلمه، ولا شيء آخر.

كنّا وحيدين حتى لم يكن لنا جيران نستمع إليهم كما سمعنا المساء الآخر، صوت تلك المرأة التي كانت تقول: «حسن! أنا وإن كنت فقيرة، لا يسرّني أن أرى الأخريات يسقطن. ولا تمدح نفسك وكأنّ ذوي الأقدام الكبيرة هم أفضل من يلعب كرة القدم. أنا أعلم ما أقول لك. اعلمْ أنّ رجلاً يحبّ لا يقتل. فليفعلوا ما يفعلون!».

ما كان بمستطاعنا رؤية وجهها. ذلك كان إشكالاً بين العواهر والقوّادين. إذ كان يجب أن يقرّروا ما إن كان للمرأة التي تخلّت عن خوان لتذهب مع بدرو الحقُّ، أو ليس لها حقٌّ في أن ترتدي الثوب الذي أهداه إليها خوان، وما إن كان يمكن لبدرو أن يقبلها بهذه الثياب. ولقد أوحت إليّ المرأة بانطباع مبتذل قليلاً بأنّها ذكيّة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فالجميع ينساقون وراء المنفعة. لكنّ هؤلاء الناس يناقشون مسألة شرف، شرف عشيرة: فيما إن كان لـ«ذكر» أن يقبل أو لا يقبل امرأة ترتدي ثياباً اشتراها من أجلها شخصٌ آخر. كانا زوجين اثنين، وخرج زوجٌ منهما مرّتين أو ثلاث مرّات ليُفسح للآخرَين الحريّة في الجدال.

وبينما كانت كلمات الجيران تدخل من خلال أقصاب المقصورات، كان من الضرورة مداعبة هانكا، متذكّراً ما أصنعه حينما تواتيني الرغبة. وحدث هذا المساء الأمر ذاته. والشيء غير المعقول ليس أن تكون ضجِراً منها، وإنّما أن تكون فضضت بكارتها منذ ثلاثين يوماً تقريباً. كل ذلك مسألة روحية كما الخطيئة. فقد تظلّ امرأة مغلقة الفهم بشكلٍ أبديّ على شخصٍ ما على الرغم من كلّ شيء، إن لم يمتلكها المرء بروحٍ مُغتصِبة.

وأخذ يدخل المقصورة ذات السياج من قصب ونباتات متسلّقة، بردٌ كثير. وكانت
Telegram:@mbooks90
الأصوات التي تصل إلينا تجلب إحساساً بالوحدة في سهل «بامبا» غير آهل. وثمة أنبوبٌ محشور في جدار من الآجرّ وتالف إلى حدّ كبير. وكانت زجاجة الجعة فارغة والطاولة وكراسيّ من حديد مُتسخة بالغبار وملأى بالبقع. ولِمَ أُمعن النظر في ذلك كلّه إن كان لا يهمّني البؤس ولا الرفاهية ولا جمال الأشياء؟

بالطبع، انتهى بنا الأمر إلى الحديث عن الأدب. فقد قالت هانكا أموراً لها معنى حول الرواية وموسيقيّة الرواية. ما أشدّ قوّة الواقع في أفكار الناس ذوي التفكير الضئيل، خاصّةً أنّهم لا يخرجون عن الموضوع! أحياناً يقولون: «صباح الخير»، لكن، بأيّ لهجة ذكية جدّاً! وتحدّثنا أيضاً عن الحياة. فهانكا تقبض ثلاثمئة بيزو في الشهر أو شيئاً شبيهاً بذلك. أنا أرثي لها كثيراً. كنت هادئاً. فقلت لها: أنا لا يهمّني هذا كلّه، وأتمتّع بلا مبالاة سلسة، بكلّ شيء. فقالت: كان لهكسلي دماغٌ يعيش بانفصالٍ عن الجسم، مثل قلب فرَوج كان يُعنى به ليندبرغ والدكتور آلكسي كارّل(2). ثم سألتني:

- لكن، لِمَ لا ترضى بأن تحبّ مرّةً أخرى؟

وهذا صحيح. أنا لا أريد أن أقبل الأمر لأنّه يبدو لي أنّي سأفقد الحماس لأيّ شيء. وأنّ الأمل المُبهم بأن أحبّ يمنحني قليلاً من الثقة بالحياة. وليس لديّ بعدُ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شيء آمله. هانكا في العشرين من عمرها. وأخيراً انتابتها نوبة حنان وأرغمتني على أن أجعل كتفها وسادةً لي. لعلّها كانت تتخيّل أنها كانت تتحمّل إضافةً إلى رأسي شيئاً يشبه يأساً لا حدَّ له أو ما لا أدري. ثمّ قلت لها بعد ذلك في الممشى إن علاقتنا شيءٌ سخيف، ومن الأفضل ألّا نلتقي مجدداً. حينئذٍ أجابتني إنّي على صواب إذا فكّرنا في الأمر جيّداً، وإنّها سوف تبحث عن رجل يكون كالحيوان. لم أشأ أن أقول لها شيئاً. لكنّ الحقيقة هي انعدام وجود أحدٍ على هذا الشكل: سليم كأنّه حيوان. هناك رجال ونساء فقط هم حيوانات.

هانكا تثير ضجري حينما أفكّر في النساء. فإذا تركنا الجسم إلى جانب.. الجسم الذي من المحال أن يحتوي المرءَ بشكلٍ كامل أبداً، فأيّ شيء مشترك في ما بيننا؟ أنا أستطيع أن أكون صديق إلكترا فقط. أتذكّر دائماً ليلةً كنت فيها سكران، وشرعت أتحدّث إليها وأنا أنظر إلى صورة فوتوغرافية. كان وجهها كأنّه الذكاء، مزدرياً شيئاً قليلاً، وبارداً وغامضاً، ومع ذلك هو حُزَّ من التعقيدات. وتبدو لي أحياناً أنّها كائن كامل، وتُخيفني؛ وأموري العاطفيّة لا تنتعش إلا إذا كنت إلى جانبها. ذلك أنّ كلّ شيء ضبابيّ قليلاً، وحزين، وكأني كنت مسروراً أو متدثّراً جيّداً مع شيء من الرغبات في البكاء.

ولِمَ كنت أتحدّث عن الفهم في سطور سابقات؟ فلا أحد من هؤلاء البهائم القذرين يمكنه أن يفهم شيئاً. ذلك كما عملٌ فنّي. هناك مخطّط فقط يمكن أن يُفهم فيه شيءٌ ما. والسوء في أنّ الحلم لا يكشف عن نفسه، ولم تُخترع بعدُ وسيلةٌ للتعبير عنه والسريالية بلاغة. وإنّما المرء وحده من يكشف عنه أحياناً في منطقة الحلم من روحه. ماذا يعني إن لم تفهم إستير، وأنّ كوردِس مرتاب؟ أمر إستير وما حدث لي معها هامّ. لأنّي ما دمت قد تحدّثت عن الحلم وعن المغامرة (أعتقد أنها مغامرة كوخ الجذوع ذاتها)، فإنّ كلّ ما كان حادثاً وما حدث من قبلُ وحتى علاقتي بإستير منذ أشهر خلت قد تغيّر، وأصبح ملآن وملفوفاً بضباب كثيف إلى حدٍّ كبير، كالضباب الكثيف الذي يطوّق، بصورة لا يمكن اختراقها، ذكرى الأمور التي حلمنا بها.

لا أدري ما إن كان ذلك منذ ما يزيد عن عام أو يقلّ عنه. تلك أيّام انتهت فيها المحاكمة، وأعتقد أنّهم كانوا في سبيلهم لإصدار الحكم. وكنت ما زلت موظّفاً في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصحيفة اليوميّة وأذهب في الليالي إلى «الإنترناثيونال» عند خوان كارلوس غومِث، قرب المرفأ. إنّها حانة كريهة، قاتمة، وملجأ آمن فيه بحّارة ونساء. نساء من أجل البحّارة، سِمانٌ وذوات بشرة بنيّة دهنيّة يجب عليهنّ أن يجلسن منفرجات السيقان ويضحكن من الرجال الذين لا يفهمون لغتهن، ويهززن أيادي ذوات أظفار سود تلهو بالمنديل ذي اللون الفاقع الذي يحيط بالرقاب. لأن الأطفال والفتيات لهم رقاب.

يضحكن من الرجال الشُقر السكارى دائماً، الذين يدندنون بأغانٍ غير مفهومة، وقد أخذهم الفُواق، وهم يمسكون بأيدي النساء القذرة. وتنتشر إزاء الحائط الخلفيّ طاولات سيّئي الخلق والحذرين والكئيبين، وأعقاب السجائر في أفواههم وهم يعلّقون على الليلة وعلى ليالٍ أخرى تظهر آثارها أحياناً على النشارة الموحلة دائماً بينما ينهمر المطر والأسوار تتقعّر وتنغلق كقبو.

كانت تكلفة إستِير بيزوين اثنين، أحدهما لها والآخر من أجل الفندق. لقد كنّا صديقين وتحيّيني من عند طاولتها محرّكةً إصبعين عند الصدغ. وتطوف مداعبةً رؤوس سكارى، وتتبادل التحية مع النساء على نحوٍ رزين، ثمّ تأتي لتجلس معي. ولم نخرج قطّ معاً. وكانت خرقاء كالأخريات وشحيحة وبائسة وربّما أقلّ قذارةً منهنّ. لكنّها تبدو أنضر شباباً، وذراعاها الثخينتان البيضاوان تنبسطان لبنيّتين في ضوء المقهى الصغير، سليمتين وظريفتين، وكأنّها عند غوصها في الحياة، رفعت يديها بحركةٍ يائسة طلباً للمساعدة، وأخذت تحرّكهما كما يفعل الغرقى. وربّما ظلّت الذراعان إلى الخلف بعيداً في الزمن، ذراعا فتاة افترقتا عن الجسم الطويل القلق الذي أصبح غير موجود.

- ماذا تصنع، يا مجنون؟!

- لا شيء.. ها نحن هنا. لكنّي أدفع ثمن الشاي ولا شيء آخر.

- أنا لم أطلب منك شيئاً، يا متسكّع!

وضربت بيدها طرف قبّعتي وهي تضحك. وجعلتها تنثني فوق النقرة. كتفاها أثخن من ذراعيها بشكلٍ غريب. وكانتا مدوّرتين وبارزتين كأنّهما كتفا ملاكم، لكنّهما بيضاوان ناعمتان مغمورتان بالذرور (البودرة) والعطور، ونادتِ الغلام وطلبت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مشروب كرز حامض.

ذات ليلة -هي أيضاً ماطرة- والطاولات في الخلفيَة ملآنة وصامتة وموحشة، بينما الفتى، الذي يتحرّك كامرأة، يضحك وهو يعزف ڤالسات على البيانو وبيده نصف ليتر يرفعه عالياً من حين إلى آخر، ويعزف الموسيقا مخمَدةً بإصبع واحد ويشرب ضاحكاً:

- Cheerio!(3)

وقلت لها هذه الليلة إني لن أذهب معها وأدفع لها. كانت مفرطة الحلاوة من أجل هذا الغرض، وجدَ مختلفة عن أولئك النساء الأخريات السّمان الغِلاظ.

- نساء من أجل البحّارة. أمّا أنا، والحمد لله...

وكان صوت الفتى عند البيانو، لمَا كان يقول: «Cheerio»، ونصف ليتر في الهواء، صوتَ امرأة أيضاً.

أيّ شيء يمكن لها أن تفكّر فيه؟ من جهةٍ أخرى، ربَما لم أكن صريحاً معها وقلت لها ذلك القول لا لشيء، وكأنّه نكتة. لكنّ إستير هزّت كتفيها وكشرت تكشيرةً ماجنة لا علاقة لها بذراعيها. وربَما كشفت فجأة، وكأنّها كشفت عن سرّ عائليّ محفوظٍ بعناد، عن قرابتها بالنساء ذوات البشرات القاتمة اللاتي يضحكن وهنّ يتأرجحن فوق الكراسي.

- هيّا بنا، يا رجل! إن رأيتني حمقاء...

ولقد عزمت منذ ذلك الحين على أن أعاشرها مجّاناً. وما كنت أحدّثها عن هذا الأمر قطّ ولم أطلب منها شيئاً. ولمَا تدعوني للخروج، أحرّك رأسي بهيئة حزينة.

- كلّا! لن أدفع أبداً. عليك أن تفهمي أن هذا الأمر لا يمكن أن يكون معك على هذا الشكل.

وكانت تشتمني وتذهب. وأصبح مجيئها إلى طاولتي يقلّ أكثر فأكثر، حتى ما كانت تحيّيني في بعض الليالي، وتكون حينئذٍ في الغالب سكرى وربَما مربضة، ومُنهكة، ومبتذلة، بينما ذراعاها، خاصّةً كتفيها المدوّرتين وعليهما الذرور، تبدوان كدفقات من الحليب وسط الطاولات، ويتلألأان في ضوء الصالون، البائس. وأصبح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اهتمامي يتضاءل بالأمر، وكنت ما أزال أجيء بحكم العادة، لأنّه لم يكن لي صديق ولا شيء لأعمله. وحينما ينتهي عملي في الصحيفة الساعة الثالثة صباحاً كنت أشعر أنّي بلا قوى لكي أذهب إلى الغرفة وحيداً.

في ذلك الوقت ما كانت تزورني خواطر قبل النوم. وبدت الصور القليلة التي تردني حُمقاً. ولقد رأيتها في النهار أو قُبيل ذلك. وأخذت تتكرّر صور أناس لا يهمّونني، قابعين في أمكنة ليس فيها سرّ. وكان الطلاق في سبيله للبتّ فيه. ولقد افتُتحت المحاكمة بشكلٍ قانوني تامّ. وذهبت إليها مرّة واحدة فقط. فما كنت أستطيع تحمّل الأمر، وما كنت أبالي بالنتيجة مصمّماً على ألّا أعيش مع ثيثيليا؛ وماذا يهمّني أن يُعلن أيُّ حمار أن الذنب يقع على عاتقها أو على عاتقي؟ والأمر لا يتعلّق بنا. فنحن، العجائزَ المُتعبين الذين تقلّ معرفتهم بالحياة كلّ يوم، كنّا خارج الموضوع... إنّها العادة المُحالة دائماً في أن نولي الأشخاص أهميّةً تفوق الأهميّة التي نوليها للمشاعر. ولا أجد كلمةً أخرى، أعني أنّنا نولي الآلة أهميّةً تفوق الأهميّة التي نوليها للموسيقا.

وقد خلقنا شيئاً عجيباً. كانت ثيثيليا فتاة ترتدي ثياباً عليها رسوم أزهار الربيع، وعندها قفّازان صغيران، وتستعمل مناديل من قماش شفّاف وعليها رسوم أطفال مطرّزة في الزوايا. وقد وُلد حبّنا كأنّه ابن وغذّيناه، لكنّه هو، كانت له حياة على حدة. كان خيراً منها، وخيراً منّي كثيراً. وكيف أقارن بهذا الشعور، الجوَّ الذي يُرغمني بعد نصف ساعة من خروجي من البيت على العودة يائساً لكي أتحقّق من أنّها لم تمت في غيابي؟ وثيثيليا التي باستطاعتها تمييز أنواع لحم البقر المختلفة، وتجادل اللّحّام بشكلٍ جدّي حينما يخدعها، ألها علاقةٌ ما بذلك الأمر الذي جعلها تسافر في القطار، واضعةً على عينيها نظّارةً سوداء كلّ الأيام قبل وقتٍ قليل من زواجنا، «إذ يجب ألّا يرى أحدٌ العينين اللتين رأتاني عارياً»؟

والحبّ شيء عجيب وغير معقول، ويزور أيّما صنف من النفوس بشكلٍ غير مفهوم؛ لكنّ الناس غير المعقولين والعجيبين ليسوا كثيرين. والذين هم كذلك، فذلك لوقتٍ قصير في ربيع الشباب. ثمّ يأخذون بالفهم ويتوهون.

ولقد قرأت أنّ ذكاء النساء يتوقّف عن النموّ في العشرين أو الخامسة والعشرين من العمر. وأنا لا أعرف شيئاً عن ذكاء النساء ولا يعنيني أن أعرف أيضاً. لكن روح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفتيات تموت في تلك السنّ إلى هذا الحدّ أو ذاك. لكنّها تموت دائماً. ويُفضي بهنّ الأمر إلى أن يكنّ كلّهن سواء، بمعنى عمليّ كريه، بحاجاتهنّ الماديّة ورغبتهنّ العمياء والغامضة في أن يلدن ابناً. وإذا فكّرنا في الأمر، فلسوف نعلم السبب في انعدام وجود نساء فتانات كبيرات. وإذا ما تزوّج المرء فتاةً واستيقظ ذات يوم إلى جانب امرأة، فمن الممكن له أن يفهم من غير تقزّزٍ نفسيّة مغتصبي الفتيات الصغيرات، وعطفَ العجائز البليد الذين يقبعون عند زوايا المدارس ومعهم قطع الشوكولا.

والحبّ شيءٌ عجيب بإفراط، حتى لا يستطيع المرء أن ينشغل بمصير شخصين اثنين لم يعملا شيئاً إلّا أنهما حازا عليه بشكلٍ غير مفهوم. فما يمكن أن يحدث لدون إيلاديو ليناثِرو ودونيا ثيثيليا هويرتا دِ ليناثرو لا يهمّني في شيء. يكفي أن أكتب اسميهما حتى أشعر بتفاهة هذا الأمر كلّه. أقصد الحب، وهذا قد انتهى. ولم تكن ثمّة دعوى أولى أو ثانية في المحكمة، وإنّما أصبح الحبّ ميّتاً قديماً. وما جدوى البقيّة؟

ثمّة، في التحقيق الأوّلي، شيءٌ لا أستطيع أن أنساه؛ وأنا لا أسعى لتبرئة نفسي. ويستطيع جرذان المحكمة أن يكتبوا ما يشاؤون. فكلّ الذنب ذنبي: فلا يهمّني أن أكسب مالاً ولا أن يكون لي بيت فيه مذياع وثلّاجة وآنية، ودورة مياه متقنة. ويبدو لي العمل حماقة بغيضة يصعب الهرب منها. والناس الأقلّاء الذين أعرفهم غير جديرين بأنّ تمسّ الشمس وجوههم: بُعداً لهم ولكلّ الناس ولدونيا ثيثيليا هويرتا دِ ليناثِرو!

لكن، جاء في التحقيق الأوّلي أني أيقظت ثيثيليا ذات ليلة «وأرغمتها مُهدّداً على أن تلبس ثيابها، وأخذتها حتى تقاطع الدرب وشارع إدواردو آثِبدو». وهناك «قمت بأعمال هي من أعمال شخص غير طبيعي، فأرغمتها على أن تبتعد ثم تأتي مشياً إلى حيث كنت مرّاتٍ عدّة، وأن تردّد جملاً لا معنى لها». يُقال إن هناك طرقاً شتى للكذب؛ لكنّ أكثرها إثارةً للاشمئزاز قولُ الحقيقة، الحقيقة كلّها، مخفياً روح الوقائع، لأنّ الوقائع فارغة دائماً، وهي أوعية تتخذ شكل المشاعر التي تملؤها.

اضطجعنا تلك الليلة من غير أن يكلّم أحدنا الآخر. أنا كنت أقرأ ما لا أدري، وأرى ثيثيليا أحياناً بمؤخر الطرف نائمة. لها مظهر هادئ حلو يكاد يكون باسماً، مظهر ما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قبلُ، لمَا كانت تُدعى «ثيثي»، التي كوّنتُ عنها صورة صحيحة أصبحت لا أستطيع أن أتذكّرها.

ولم أستطع قطّ أن أنام قبل أن تنام. فتخلّيتُ عن الكتاب وشرعتُ أداعبها بنوع من المداعبة الرتيبة التي تسرّع النوم. خشيت دائماً أن أنام قبل أن تنام، ولا أدري السبب. ولئن كنت أحبّها حباً جمّاً، فإنّ هذا الأمر يشبه أن تُولي العدوّ ظهرك. وما كنت أستطيع أن أتحمّل التفكير في أن أنام ثمّ أدعها في الظلام صاحية وحرّة بشكلٍ مطلق، وما تزال حيّة. فانتظرت إلى أن تنام بشكلٍ كامل وأنا أداعبها دائماً مراقباً كيف سيتجلّى النوم بارتعاشاتِ ركبتيها ارتعاشاتٍ مفاجئة، وبرائحة نفسها الجديدة الغريبة المبهمة تقريباً. ثمّ أطفأت الضوء منتظراً، منفتحاً على سيل الصور.

لكنّ المغامرة لم توافني تلك الليلة لكي تعوّضني عن النهار. وتردّدتْ بعنادٍ تحت أجفاني صورة أمست بعيدة. كانت تحديداً صورة الدرب بمستوى شارع إدواردو آثِبدو، ذات ليلة من ليالي الصيف قبل أن نتزوّج. كنت بانتظارها مستنداً إلى الشرفة وأنا في الظلام الذي يفوح على نحوٍ حادّ برائحة البحر. وهي تنزل الشارع المنحدر، بخطاها الطويلة الرشيقة حينئذٍ، مرتدية ثوباً أبيض ومُعتمرة قبّعة صغيرة ساقطة على أذنها، فيما تضرب الريح ثوبها معيقةً خطاها، وتجعلها تنحني تقريباً كأنّها قاربٌ شراعيّ يُقبل نحوي انطلاقاً من الليل. وكنت أحاول أن أفكّر في شيء آخر، لكن، ما إن استغرقت في التفكير حتى أصبحت أرى الشارع بدءاً من ظِلّ السور والفتاة «ثيثي» وهي تنزله لابسة ثوباً أبيض.

حينئذٍ جاءتني تلك الفكرة الحمقاء كأنّها وسواس. فأيقظتها وقلت لها إنّ عليها أن ترتدي ثوباً أبيض وترافقني. إذ كان هناك أملٌ وإمكانيّة بأن ننصب شبكة ونصطاد الماضي، ماضي ثيثيليا يومئذٍ. وما كنت أستطيع أن أبيّن لها شيئاً، فمن الضرورة أن تذهب من غير خطّةٍ ما ومن غير أن تعلم السبب. وما كنت أستطيع أيضاً أن أبدّد الوقت، فتلك الساعة هي ساعة المعجزة وعلى الفور. وكان ذلك كلّه مفرطاً في غرابته. ولا بدّ من أنني بدوت مجنوناً. فجزعَتْ وذهبنا. وصعدتِ الشارع مرّات عدّة، وأقبلت نحوي بثوبها الأبيض الذي تضربه الريح وتجعلها تنحني. لكنّ خَطوها أصبح فوقُ في الشارع المائل مختلفاً، رصيناً وحذراً، وأصبح الوجه الذي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقترب مني، عند تجاوز الدرب تحت مصباح الشارع، متجهَماً وكئيباً. وما كان يوجد شيء بعدُ لنعمله، فعُدنا.

لكن، لا علاقة لهذا الأمر بما يهمّني أن أقول. أعتقد أنّ ثيثيليا تزوّجت مرّة أخرى، وقد تكون سعيدة. كنت آخذاً بقصّ قصّة إستير. وإنّ النتيجة فيها أيضاً ذات ليلة ماطرة، ومن غير قوارب في المرفأ. وكان المقهى الصغير خالياً تقريباً. جاءت إلى طاولتي ولبثت قرابة الساعة ومن غير أن تتكلّم. وما كانت تُعزف موسيقا. وضحكت بعد ذلك وقالت:

- إذا أردت الذهاب معي من دون أن تدفع، فلن تدفع شيئاً. أليس هذا الأفضل؟!

وأخرجَتْ بيزو واحداً ودفعت ثمن الشراب الذي تناولته. ولم أبالِ بها. فقالت لي في الحال:

- أقول.. وإذا جُنّ جنوني؟!

- أحقاً؟!

- حسن! أنت رأسك يابس. في الإصرار لا أحد ينتصر عليك. فلنذهب إن شئت!

- أنا لا أريد مشكلات. أمجاناً؟!

- نعم. لكنّ، لا تظنّ أنّي سأجعل لك المجال مفتوحاً. هي آخر مرّة. واعلم: أنّي لن أخرج معك مرّةً أخرى ولو دفعت لي.

والآن، ما كان لديّ أيّ اهتمام. لكن، لا يوجد خيارٌ أخر. وخرجنا. هي تضع معطفها على كتفيها وتسير ورأسها مطأطئ في الدرب الذي يتلألأ بسبب المطر. وكان الفندق في «لِينبير» مقابل السوق.

السماء ما تزال تُمطر رذاذاً، ولم نركب عربة، وهكذا ذهبنا صامتين. ولمَا وصلنا كان رأسها مبلّلاً، وهزّت جمّتها إزاء المرآة كاشفة عن أسنانها من غير أن تحرك كتفيها الكبيرتين البيضاوين. وكان للقنديل الخشبي ضوءٌ أزرق. وأتذكّر أنّها لبثت هنيهة إلى جانبي ترتجف، وكان جسمها متجمّداً وبشرتها خشنة منتفخة.

وقلت لها وأنا في السرير لمَا كانت ترتدي ثيابها، ولا أعرف سبب قولي بتاتاً:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ألم يخطر ببالك أشياء، قبل النوم أو في أيّ مكان آخر، أشياءُ غريبة يسرّك أنْ تحدث لك...؟

وكان لديّ إحساسٌ غامض أنّي دفعت لها بشكلٍ ما لمّا قلت لها ذلك القول، لكنّي لست على يقين. فقالت حماقةٌ ما وهي تتثاءب مرّة أخرى إزاء المرآة. ولبثتُ هنيهة صامتاً وأنا أنظر إلى السقف، مستمعاً إلى ضوضاء المطر على الشُرفة. وكانت تصلني جلبةُ العربات الثقيلة وصياح الديكة. ورحت أتحدّث من غير أن أتحرّك، وأنا مضطجع على ظهري مطبقاً عينيّ.

- منذ لحظة كنت أحسب نفسي في هولندا. وكل ما حولي هنا غير موجود. وأنا أقول لك «نيذرلاند» ولسبب. وسوف أقصّه عليك بعد ذلك. الشرفة تطلّ على نهر تمرّ عبره قوارب كأنّها زوارق صغيرة محمّلة بالخشب، وعليها كلّها غطاء من قماش غليظ واقٍ من المطر الذي يسقط. والماء أسود، وأخذت الزوارق تنحدر ببطء من غير ضوضاء، بينما الرجال يدفعون بالمراديّ(4) على الرصيف. وكنت في الحجرة هنا أنتظر خبراً ما أو زيارة. وقد حصلت زيارة أحياناً، فجئتُ من هناك لألتقي هذا الشخص هذه الليلة. لأنّنا كنّا اتّفقنا منذ سنين كثيرة على أن نلتقي هذه الليلة في هذا الفندق. وهناك أشياء أخرى أيضاً. هناك زورق مُحمّل بالبنادق وأريد أن أمرّرها تهريباً. فإذا سار كلّ شيء على ما يُرام، فإنّي أترك ضوءاً أزرق كضوء هذه الشرفات. وينحدر طاقم الزورق إلى تحتُ وهم يغنّون بألمانيّة تقول شيئاً ما: «اليوم قلبي يغرق...». كلّ شيء يسير على ما يُرام، لكنّي غير سعيد. وأدركت فجأة -أتسمعينني؟- أنّني في بلد لا أعرفه، حيث المطر دائم، ولا أستطيع التحدّث إلى أحد؛ وقد أموت هنا فجأة في ساحة الفندق.

- لكن، لِمَ لا تفطس؟

كانت قد تخلّت عن تنظيم تسريحتها، وتنظر مستندةً إلى المِزيَنة بهيئة غريبة.

- أيمكنني أن أعلم أيّ شراب تناولت؟

- حسنٌ! لكن، قولي لي إنْ كنتِ تفكّرين هذا التفكير، أو فكّرت في أيّ شيء غريب.

- فكّرت دائماً أنك حالة مَرَضيّة. أو لا تفكّر في أن تأتيك نساء عاريات؟ ما قولك؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولعلّةٍ ما لا تريد أن تدفع لي! أهكذا أنت...؟ يا للناس المقزّزين!

خرجَتْ قبل أن أخرج، ولم نلتقِ مرّة أخرى. هي امرأة بائسة، وكان من الغباء أن أحدّثها هذا الحديث. وإنّي أفكّر فيها أحياناً. وهناك مغامرةٌ تأتي فيها إستير لزيارتي، أو نلتقي مصادفة ونشرب ونتحادث كصديقين جيّدين؛ فتقصّ عليّ حينئذٍ ما تحلم به وتتخيّله. وهي دائماً أمورٌ ذات نقاء فريد وبسيط كقصص الأطفال.

أنا تعِب جداً ومعدتي فارغة. وليس لديّ فكرة عن الوقت. ولقد دخّنت كثيراً حتى تقزّزت من التبغ، وعليّ أن أنهض لأخفي العلبة، وأنظّف الشقّة قليلاً. لكنّني لا أريد أن أكفّ عن الكتابة من غير أن أقصّ ما حدث مع كوردِس. ومن الغريب جدّاً أن لم يرجع لاثَرو. ويبدو لي في كل لحظة أنّي أسمعه في الدرج سكران، ومتأهّباً ليطالبني بالأربعة عشر بيزوات بغضب هو أشدّ ممّا سبق. ويُحتمل أن يكون وقع أسيراً؛ وفي هذه اللحظة قد يكون بعض أشباه الزنوج أكثر فظاظةً منه، يعذّبونه بالأسئلة والضرب. هو رجل مسكين، وأنا أحتقره حتّى جذور الروح. وإنّه قذر وفظّ ويخلو من الخيال. وله طريقة بغيضة في الاستلقاء على السرير والكلام عن البيزوات الأربعة عشر اللعينة التي أدين له بها، من غير راحة وبصوت رتيب وبهذه السأسآت الكثيفة والراءات R الحلْقية، بلهجة مزهوّة. لهجة ابن عِرقٍ عريق، محشوّة بتجربة من يجد المشكلات كلّها محلولة عنده. أنا أبغضه وأرثي له؛ يكاد يكون عجوزاً. وهو متعب ولا يجد طعاماً كلّ الأيّام، ولا يستطيع أحدٌ أن يتخيّل الحِيَل التي تخطر له ليحصل على التبغ. وينهض أحياناً في الفجر ويجلس قرب الضوء البازغ، ويقرأ وهو يتمتم كتباً في الاقتصاد السياسي.

وفيه شيء من القرد وهو مُنثنٍ فوق المقعد وقبضتاه على رأسه الحليق ومخاطه يسيل، ووجهه ملآن بالغضون وبالشعر، ويجعل عينيه تنظران شزراً وسط حاجبيه المخلخلين وكيسي أذنيه الكبيرين. وإذا كنت منغّصاً جدّاً، فإنّي أتسلّى أحياناً قليلة بالجدل معه محاولاً أن أنسف ثقته بالثورة بحجج ماكرة، وبسوء نيّة فظّ. لكن التعيس يأخذها على أنها شرعيّة. ويبعث على الضحك أو البكاء، حسب الوقت، الجهدُ الذي عليه أن يبذله لكي يستطيع لسانه المتصلّب أن يترجم عمل دماغه اليائس ويدافع عن المذاهب والرجال.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأدعه يتكلّم ويتخبّط وحيداً، ناظراً إليه بابتسامة ساخرة مقطّباً فمي شيئاً قليلاً جهة اليمين. وهذا الأمر يثير غيظه ويجعله يزداد تخليطاً بسرعة. بالطبع، هذا الأمر لا يدوم كثيراً. وهو محزن لأنّي أتسلّى، فيفقد لاثرو الصبر ويغضب ويشرع في الشتم.

- انظر: أنت ساقط اجتماعياً! أنت مقزّز أكثر من خنزير برجوازي! هذا هو الأمر.

وتلك هي اللحظة المناسبة لأحدّثه عن الترف الآسيوي الذي يعيش فيه مفوّضو الشعب في الكرملين، وميل الرفيق الكبير ستالين اللاأخلاقي إلى الفتيات الصغيرات غضّات الإهاب. (لديّ قصاصة لا أدري لأيّ مراسل كريه لصحيفة أميركية شمالية، فيها خبر يتحدّث فيه عن هذه المتارف الآسيوية. وعن الأطفال الذين يُقتلون ضرباً بالسياط وما لا أدري من حماقات أخرى كثيرة. ومن المدهش أن نرى إلى أيّ شيء يمكن أن تتحوّل الثورة الروسية في مخّ تاجر أميركي شمالي؛ تكفي رؤية صور المجلّات الأميركية الشمالية، ولا شيء آخر غير الصور لأنّي لا أعرف أن أقرأها، لكي أدرك أنّ لا وجود لشعب على وجه الأرض أشدّ حماقة من هذا الشعب؛ ولا يمكن أن يوجد، لأنّ القدرة على الحماقة محدودة أيضاً في العرق البشري. وما أكبر التعبير عن المسكنة، وما أعمق الفظاظة وهي تطلّ من أيدي هذه الشرذمة من نساء هوليوود وعيونها كلّها).

- انظر يا عجوز: أنا أرثي لك لأنّك رجل حسن النيّة! إنّهم دائماً ملايين الحمقى من أمثالك يذهبون إلى المسلخ. فكّر قليلاً في كلّ اليهود الذي يشكّلون البيروقراطيّة الستالينيّة...

وما كان بحاجة إلى أكثر من ذلك. فاختلق الرجل المسكين الحجج: فحدّثني عن يوم الثورة. (ولديه جملة عبقرية: «كلّ يوم يصبح أقرب...»)، ويهدّدني بالشنق، أو بإطلاق الرصاص عليّ من خلف، وبالذبح من الأذن حتى الأذن والإلقاء بي في النهر.

أقول مرّة أخرى إنّي أرثي له كثيراً. لكنّ الحيوان يعرف أن يدافع عن نفسه أيضاً. ويعرف أنّ يملأ فمه بكلمة ويجعلها تطنّ كأنّما يبصقها بصقاً:

- فاااشل!

يقولها باللهجة ذاتها الساخرة التي يتشاتم بها الصبيان في الشارع. ثمّ يلي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكلمة شيءٌ في حلقه الرنان، شيء أثار استهجاني أكثر من أيّ شيء في الدنيا، كان لُكنة أجنبية -تشيكوسلوفاكيا، ليتوانيا أو شيء من هذا القبيل-، لُكنة أجنبية جعلتني أدرك بشكلٍ كامل ما يمكن أن يكون عليه البغض العِرقي. ولا أدري ما إن كان المقصود بغض عِرقٍ بكامله، أو بغض أحدٍ ما بكلّ قوّة العِرق.

لكنّ لاثرو لا يعرف ما يقول حينما يصرخ: «فاشل». ولا يستطيع أن يشتبه في ما تحويه الكلمة في نظري. لأن الرجل المسكين يصرخ بي بهذه الكلمة، لأنه خطر له في بداية علاقتنا أن يدعوني ذات مرّة إلى اجتماع مع الرفاق. كان يحاول إقناعي مستعملاً حججاً أعرفها منذ عشرين عاماً، وقد أضجرتني منذ عشرين عاماً وإلى الأبد. وأقسمُ إنّي ذهبت إشفاقاً، ولا لشيء آخر غير إشفاق عميق وخوف مفرط من أن أجرحه، وكأنّ في موقفه وفي رأسه القرديّ شيئاً آخر ناعماً بشكلٍ لا يُوصف جعلني أرافقه إلى اجتماع الرفاق المشهور.

ولقد عرفت كثيراً من الناس، عرفت عمّالاً وناساً من ذوي الحاجات والذين ضربتهم الحياة بشدّة، وطاردتهم التعاسة بشكلٍ لا يرحم؛ ولقد ارتقوا فوق بؤس حياتهم ذاتها ليفكّروا وليعملوا في ما يخصّ فقراء العالم كلّهم. والبعض منهم يحرّكه الطمع والحقد والحسد. ولنفترض أنّهم كثيرون وأنّهم الأغلبيّة. لكنّ ناس الشعب، الشعب الذي هو شعب بطريقة شرعيّة، وهم الفقراء وأبناء الفقراء وأحفاد الفقراء، لديهم دائماً شيء جوهري غير ملوّث، شيء مصنوع من الطهارة وطفليّ، وبريء وقويّ وصادق ويمكن الاعتماد عليه في ظروف الحياة الحرجة. وأنا لم أؤمن بهم قطّ يقيناً. لكن، لربّما كنت تابعت مسيرتي معهم مسروراً، منتفعاً بالبراءة التي يتمتّعون بها من غير أن أدري. وبعد ذلك اضطُررت إلى التحرّك في أجواء أخرى، وتعرّفتُ إلى أفراد آخرين من رجال ونساء انتهى بهم الأمر إلى أن ينخرطوا في التجمّعات. وكان ذلك كارثة.

Telegram:@mbooks90

ولا أدري ما إنْ كان الفصل بين الطبقات صحيحاً، وقد لا يكون نهائياً، لكن، في أنحاء العالم كلّه أناس يشكّلون الفئة التي ربّما هي الأكثر عدداً في المجتمعات. ويُدعَون «الطبقة الوسطى» أو «البرجوازيّة الصغيرة» التي تجتمع فيها كلّ العيوب التي يمكن أن تستغني عنها الطبقات الأخرى، ولا شيء أحقر منها ولا أتفه. وإذا ضمّوا إلى وضعهم كبرجوازيّة صغرى فئة «المفكّرين»، فقد يستحقّون الكنس من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غير إخطار مسبق. وإذا انطلقنا من أيّ وجهة نظر باحثين عن الغاية التي يُبحث عنها، فإنّ القضاء عليهم سوف يكون عملاً لإزالة العفن. ولقد تعلّمت في أسابيع قليلة أن أبغضهم؛ وأصبحتُ لا أهتمّ بهم. لكنّي أرى أحياناً بالمصادفة أسماءهم في الصحف اليوميّة أسفل بعض الأعمدة الطويلة الغبيّة والكاذبة، فيتحرّك فيّ البغض القديم ويكبر.

يوجد من كلّ شيء. فقد اقترب بعضُهم من الحركة الثورية لكي ينعكس صيت النضال الثوري أو ما شئت أن تسمّيه، شيئاً قليلاً، في قصائدهم العجيبة؛ وآخرون لكي يلهوا ببساطة مع الفتيات الطالبات اللاتي كنّ يعانين بشكلٍ فائض داءَ الحصبة المضادّ لبرجوازيّة المراهقة. وهناك من يملك سيّارة «باكارد» ذات ثماني أسطوانات، وقمصاناً ثمن الواحد منها خمسة عشر بيزواً، ويتحدّث من غير وساوس عن مجتمع المستقبل واستغلال الإنسان للإنسان. ويجب على الأحزاب الثوريّة أن تؤمن بفعاليتهم وتفترض أنّهم مفيدون لها. إنّها في الأساس لعبة أخذ وعطاء. ويبقى الأمل هنا أو في أيّ مكان من العالم بأنّ الأشياء متى أصبحت جدّيّة، فإنّ أوّل حيطة يتّخذها العمّال هي أن يتخلّصوا بشكلٍ نهائيّ من هؤلاء السُوقَة.

ثمّ تنحّيت فوراً وأصبحت مرّة أخرى وحيداً. ولهذا الأمر يقول عنّي لاثرو إني «فاشل». وقد يكون على صواب، ومن جهة أخرى، هذا قليل الأهميّة لي. وبعيداً عن هذا كلّه الذي لا يُعدّ شيئاً، ماذا يمكنني أن أعمل في هذا البلد؟ لا شيء، حتى لا ينبغي لك أن تنخدع. ولو كان المرء دابّة شقراء لربّما فهم هتلر. إذ إن هناك إمكانيّة للإيمان بألمانيا. فهناك ماضٍ قديم ومستقبل أيّاً يكن. ولو كان المرء ثوريّاً مغفّلاً فسوف ينقاد من غير جهد للصوفيّة الجرمانيّة الجديدة. لكن، ماذا هنا؟ فوراءنا لا يوجد شيء غير غاوتشو، أو اثنين أو ثلاثة وثلاثين غاوتشو(5).

لكنّ هذا كلّه يصيبني بالضجر وتُصاب أصابعي بالبرد وأنا أسير وسط الأشباح. أريد أن أقصّ مقابلتي مع كوردِس؛ هو أيضاً نموذج فكريّ. وأعترف أنّي ما زلت معجباً به. فقد كان ذا موهبة وغريزة لا تخيب، بالحَرَا، لكي يسترشد بها وسط العناصر الشعريّة. ويختار منها في الحال من غير حاجة إلى تعديل ولا ترقيع. ومن الغريب أنّه تصرّف تقريباً بغباء يفوق غباء إستير.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأتذكّر أنّي كنت ذلك الوقت، وحيداً جدّاً -وحيداً على الرغم منّي-، ومن غير آمال. وكلّ يوم، تبدو لي الحياة أكثر صعوبة. ولم أكن قد حصلت بعدُ على العمل في الصحيفة. واستسلمت وجعلت نفسي أنساق، وليكنْ ما يكون، ولِمَ لا تأتي الخواطر إلى من ينتظرها ويدعوها من كلّ قلبه من زاويةٍ ما منعزلة؟ حتّى التخيّلات في الليل كانت تبدو لي مرّة، وكانت تنتشر خالية من التلقائية، بمساعدةٍ وحثٍّ مني.

التقيت كوردِس مصادفة، وذهبنا ليلاً إلى غرفتي. وأخذنا نتناول بعض الكؤوس من الشراب. واشترى هو سجائر. أمّا أنا فكان لديّ لحسن الحظّ قليل من الشاي. ولبثنا نتحادث إبّان ساعات في هذه الحالة من السعادة المُبالَغ بها، والعذبة مع ذلك، تلك التي وحدها الصداقة يمكن أن تهبها، وتجعل شخصين يزيلان على نحوٍ غير محسوس الأعشاب الضارّة، ويرجعان القهقرى في طريقهما لكي يستطيعا الالتقاء مصادفةً، وأن يحتفلا بذلك بابتسامة.

منذ زمنٍ طويل لم أشعر بنفسي سعيداً على هذا الشكل، وحرّاً، وأنا أتحدّث يملؤني الحماس بشكلٍ صاخب من غير تذبذبات، واثقاً من أنّه يفهمني، وأنا أستمع إليه أيضاً بالشدّة ذاتها، محاولاً أن أخمّن أفكار كوردِس من الكلمات الأولى في جمله. ونحن نشرب الشاي، وربّما كانت الساعة الثانية صباحاً، وربّما أكثر منها، قرأ عليّ كوردِس بعضاً من أشعاره. وكانت قصيدة غريبة، نُشرت بعد ذلك في إحدى صحف العاصمة بوينوس آيريس. وإنّي أحتفظ بقصاصة بلا ريب، في حقيبةٍ ما. لكنّها لا تستحقّ العناء بأن أشرع في البحث عنها الآن. وتُدعى: «السمكة الحمراء الصغيرة». والعنوان مشوّش وجعلني أبتسم أيضاً. لكن، لم يكن هناك مندوحة من قراءتها. وكوردِس ذو موهبة كبيرة لا تُنكر. وبدا لي متردّداً متقلقلاً، وربّما يمكن القول عنه إنّه لم يكن على ما يُرام. ولا أدري ماذا يصنع الآن. وأصبحت لا أمتلك أخباراً عنه، ولم أرَه مرّة أخرى منذ تلك الليلة على الرغم من أنه يعلم أين يجدني.

تلك الليلة، تركت الشاي يبرد في كأسي لأستمع له. كانت قصيدة طويلة من أربع صفحات مكتوبة على الآلة الطابعة، واستمعت له بصمت وأنا أدخّن، خافضاً عينيّ من غير أن أرى شيئاً. واستطاعت أشعاره أن تطمس الغرفة والليل وكوردِس نفسه. إنّها أشياء لا اسم لها. أشياء تسعى باحثة في العالم عن اسم، وتقفز من فمه من غير

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

راحة، أو تطلع من أيما مكان بعيد وملموس. وفكّرت بعدئذٍ: ذلك كان عالماً أسود خارجاً من قعر قبّعة، وكلّ ما يمكن أن يقال هو فقر وبؤس مقارنةً بما قاله تلك الليلة. وقد اختفى كلّ شيء منذ الأبيات الأولى، وأنا كنت في العالم التامّ حيث السمكة الحمراء الصغيرة تنطلق بالتواءات سريعة في ماء المستنقع الضارب إلى الخضرة، وهي تحرّك الطحالب بلطف، ثمّ تصبح شبيهة بعضلة طويلة ورديّة اللون حينما يلامسها نور القمر. وكانت تهبّ ريحٌ طريّة ومرحة تحتكّ أحياناً بشعري؛ حينئذٍ، ترتجف المياه، وترسم السمكة الحمراء الصغيرة صوراً هاذية ساعية لتتحرّر من طعنات ضوء القمر الذي يدخل المستنقع ويخرج منه، مطارداً قلب المياه الأخضر، وكانت تنبثق ضوضاء «جوقة» بعيدة، من الأصداف الفارغة الغارقة نصف غرق في رمل القاع.

وقضينا بعد ذلك مدّة طويلة من غير كلام. كنت هادئاً ناظراً إلى الأرض؛ ولمّا خرج من النافذة ظِلُّ آخر صورة «شِعرية»، مررت بيدي على وجهي وتمتمتُ قائلاً: شكراً. وأصبح الآن يتحدّث عن شيء آخر، لكن صوته ظلّ مشبعاً بتلك القصيدة. وكان يكفيني الاستماع له حتّى أظلّ أتذبذب مع قضة السمكة الحمراء الصغيرة. ويعذّبني التفكير في أني مضطرٌّ أن أقدّم لكوردِس شيئاً بالمقابل. لكن، أيّ شيء أعرضه عليه من كلّ تلك الأوراق التي تملأ حقائبي؟ ولا شيء أبعد عنّي من الفكرة في أن أبيّن لكوردِس أنّي أنا أيضاً أعرف الكتابة. ولم يعرف ذلك قطّ، ولم أهتمّ بهذا قطّ. وكلّ ما كتبت لم يكن شيئاً آخر إلّا كومة من الإخفاقات. وسرعان ما تذكّرت مغامرة خليج آرَاك. فدنوت من كوردِس باسماً ووضعت يديّ على كتفيه. وقصصت عليه وأنا أتأرجح في البدء كما يتأرجح القارب عند الانطلاق، وقد سكرت سريعاً بأحلامي ذاتها:

- أشرعة القارب «غابيوتا» نفختها الريح، والشمس تسطع على سلسلة المرساة والجزم العالية حتّى الركب، وأقدام البحّارة والركّب حافية، وزجاجات الجنّ ترنّ باصطدامها بآنية القمرة، إنّها الليلة الأولى من ليالي العاصفة، والتمرّد ساعة القيلولة، وجسم الإكوادوريّ الممدود، الذي شنقناه عند غروب الشمس. والقارب لا اسم له، وقائده أولاف، وبوصلة الغرق، والوصول بشكلٍ أعمى إلى الخليج ذي الرمل الأبيض الذي لا وجود له على أيّ خارطة. ومنتصف الليل حيث الطاقم يصطفّ على متن المركب، والربّان يأمر بإطلاق إحدى وعشرين طلقة مدفعية على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القمر الذي حرمه منذ عشرين عاماً خلت بالضبط، من لقائه المرأةَ المصرية ذات الأزواج الأربعة.

كنت أتكلّم بسرعة راغباً في أن أقصّ على كوردِس كلّ شيء، وأنقل إليه الاهتمام ذاته الذي أشعر به، وكلّ امرئ يعطي ما لديه. فأيّ شيء يمكنني أن أعرض عليه؟ تكلّمت والفرح والحماس يملأان جوانحي ذاهباً آيباً أحياناً أو جالساً على الطاولة، محاولاً ضبط إشاراتي إلى ما كنت آخذاً بقصّه. تكلّمت حتّى جعلني حذسُ غامض أفحص وجه كوردِس. كان ذلك كأنّما أنفي ارتطم بحائط وأنا أركض في الليل. وأصبحت مهاناً أبله. إذ لم يكن على وجهه تعبيرٌ عن انعدام الفهم، وإنّما عن الأسف والشرود. ولا أذكر أيّ نكتة جبانة استعملتها لأسخر من نفسي وأكفّ عن الكلام. فقال هو:

- هذا جميل جدّاً.. نعم، لكنّي لا أدرك جيّداً ما إن كان كلّ هذا مشروعاً لقصّةٍ ما أو لشيء من هذا القبيل.

ورحت أرتعد غضباً لأنّي اندفعت في الكلام. وكنت حانقاً على نفسي ذاتها لأنّني كشفت عن سرّي.

- ليس لديّ أي مشروع. فأنا أتقزّز من هذا الأمر كلّه. أتفهمني؟ أتقزّز من الناس والحياة والشّعر المحكّك(6). انسحبت إلى ركنٍ ما، وأنا أتخيّل ذلك كلّه. أتخيّل أشياء كهذه الأشياء وقذاراتٍ كلّ ليلة.

وقد مات شيءٌ ما في ما بيننا. وارتديت سترتي ورافقته مسافة بضعة أبنية.

كنت متعباً وقضيت الليل كلّه وأنا أكتب، وقد تأخّر بي الوقت جدّاً. أمّا كوردِس وإستير والناس كلّهم فلا يهمّونني. ويستطيعون أن يفكّروا في ما يرغبون أن يفكّروا فيه، وفي ما يجب أن يقتصروا عليه في التفكير.

وأصبح الجدار المواجه أبيض، وجاءت بعض الضوضاء من بعيد، ضوضاء استيقظت حديثاً. ولاثرو لمّا يأتِ، ومن المحتمل ألّا أراه حتّى الغد. وأفكّر أحياناً أن هذا الدابّة خيرٌ منّي، فهو في نهاية المطاف الشاعر والحالم. أمّا أنا فرجلٌ مسكين. يعود كلّ ليلة إلى ظلام الغرفة ليفكّر في أشياء غير معقولة وفانتازيّة. ولاثرو تافه. لكنّ لديه إيماناً، فهو يؤمن بشيءٍ ما، ويحبّ الحياة من غير أن يدري، وبهذه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطريقة فقط يمكن للمرء أن يكون شاعراً.

أطفأت الضوء ولبثت مدّةً ما ساكناً، وساورني إحساس بأنَ ضوضاء الليل قد انتهت منذ ساعات كثيرة، كثيرة حتى كانت الشمس ارتفعت ولا شكَ. والتعب يجلب إليَ أفكاراً من غير أمل. كانت هناك رسالة ربَما قذف بها شبابي إلى الحياة، وكانت مكوّنةً من كلمات التحدّي والثقة. لا بدَ أنَ الماء ابتلعها كما ابتلع الزجاجات التي ألقاها الغرقى(7). وقد ظننت نفسي منذ عامين أنّي وجدت السعادة. وكنت أظنَ أنّي وصلت إلى ربيبَة تكاد تكون مطلقة، وأنّي على يقين بأنّه يكفيني أن آكل كلَ يوم وألَا أعرى، وأن أدخَن وأقرأ كتاباً من حين إلى آخر، لكي أكون سعيداً؛ ذلك كلّه وما يمكن أن أحلم به يقظان، وعيناي مفتوحتان في الليل الداجي، حتّى دُهشت من مكوثي زمناً طويلاً لكي أكتشف الأمر.

لكنّي أشعر الآن أن حياتي ليست أكثر من مرور كسور الزمن كسراً فكسراً آخر، كسراً فكسراً آخر، كضوضاء الساعة، وجريان الماء وتعداد النقود. أنا مضطجع في السرير والزمن يمرَ. وأنا إزاء وجه لاثرو الأشعر، وفناء الآجرَ والنساء السّمان اللاتي يغسلن في أحواض صغيرة، والأوغاد الذين يدخّنون وأعقاب السجائر في أفواههم. أنا مضطجع والزمن يزحف غير مُكترث، عن يميني وعن شمالي.

هذا هو الليل. ومن لا يستطيع الإحساس به على هذا الشكل لا يعرفه. وكلَ ما في الحياة خُزء، نحن في الليل عميان، أيقاظٌ ومن غير أن نفهم. وبعيداً في الخلفيَة، جوقة كلاب وديك يصيح من حين إلى آخر في الشمال وفي الجنوب وفي أي مكان مجهول. وتتردّد صافرات الحرس متعرّجة ثم تموت. وفي النافذة المواجهة أحدّ ما يشخر شخيراً يخترق الفِناء، ثمَ يشكو وسط الأحلام. والسماء شاحبة وهادئة وهي تحرس أكوام الظلام الكبرى في الفِناء. ثمَ ضوضاء خفيفة كطقَة جعلتني أنظر إلى فوقُ وأنا على يقين بأنّي أستطيع اكتشاف ثلمٍ ما في المكان الذي زقت منه السنوّنوةُ بالضبط. أستنشق الهواء الأوّل الذي يعلن عن الفجر حتى امتلأت رئتاي. وهناك رطوبة باردة تمسّ جبيني في النافذة. وكان الليل كلّه طليقاً متوتّراً مُطيلاً من روحه الناعمة الغامضة في دفق حنفيَة البرميل المغلقة بشكلٍ سيّئ عند الحوض الإسمنتي في الفناء.

إنّه الليل وأنا رجل منعزل يدخّن في أيّما مكان في المدينة؛ والليل يطوّقني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وينقضي تدريجياً كأنه طقس من الطقوس. وأنا لا علاقة لي به. بل هناك لحظات تتناغم تقريباً أثناءها ضربات الدم في صدغي ووجيب الليل. ولقد دخَنت سيجارة حتى نهايتها من غير أن أتحرّك.

ثمّ اعترافات إيلاديو ليناثِرو العجيبة. وأبتسم بهدوء. وأفتح فمي وأجعل أسناني تصطكّ، وأعضّ الليل بعذوبة. وكلّ شيء باطل. وعلى المرء أن يمتلك الشجاعة بألّا يستعمل حججاً على الأقلّ. ولربّما كان سرّني لو سمّرت الليل على الورق كما أسمّر فراشةً ليليّة ضخمة. لكنّ الليل هو في المقابل ما رفعني وسط مياهه كما يُرفع جسمٌ ميّت خفيف الوزن، وجرّني بشكلٍ لا مندوحة عنه وسط زبده البارد والمُبهم حتى آخره.

إنّه الليل وسوف أضطجع على السرير بردانَ ميّتاً من التعب، ساعياً لكي أنام قبل أن يحلّ الصباح من غير قوى حتى لأنتظر جسمَ الفتاة الرطب في كوخ الجذوع القديم.

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خوان كارلوس أونيتي (1909-1994):

قاصٌ وروائي من الأورغواي، وُلد في مونتفيديو. يعدُ من أهمّ كتّاب أميركا اللاتينية في القرن العشرين. نشر في بداياته أعمالاً هامّة جداً مثل: البئر، أرض لا أحد، من أجل هذه الليلة...

ومنذ أن نشر رواية «الحياة القصيرة» جعل مسرح أعماله في «سانتا ماريا» وهو عالم متخيَل أرسى من خلاله قواعد مدرسة في السرد الروائي في أميركا اللاتينية.

عاش حياة المنفى في إسبانيا منذ سبعينيات القرن الماضي وحتى وفاته.

نال جائزة ثربانتس عام 1980، وهي أرفع الجوائز الإسبانية وأشهرها، كما مُنح في عام 1985 الجائزة الوطنيَة الكبرى للآداب في الأورغواي.

علي إبراهيم أشقر:

مترجم سوري، من مواليد اللاذقية 1942. ترجم عن اللغة الإسبانية عدداً من الأعمال الأدبية الحديثة، منها: أربع عشرة مسرحية للكاتب الإسباني أليخاندرو كاسونا، «قلب أبيض جداً»، و«فكّر فيَ غداً أثناء المعركة» لخابيير مارياس، «لحن ماثوركا على ميّتين» لكاميلو خوسيه ثيلا، الحائز على جائزة نوبل للآداب عام 1989، و«موت الراقصات» لآنطونيو صولير، وغيرها.

صدرت بترجمته لدى دارَي «سرد» و«ممدوح عدوان»:

- «مع آغاثا في إسطنبول»، كريستينا فرناندث كوباس.
- «محاضرات في الميتافيزيقا»، خوسِه أورتِغا إي غاسَيت.
- «دراسات في الحب»، خوسِه أورتِغا إي غاسَيت.
- «تيرانو بنديراس»، رامون ديل بايّه إنكلان.
- «الضفَة المظلمة»، خوسِه ماريًا ميرينو.
- «مملكة هذا العالم»، آلِخو كاربنتييه.
- «الوتر والظل»، آلِخو كاربنتييه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner